

سورة يس

يس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4)
مقدمة لسورة يس

هذه السورة المكية ذات فواصل قصيرة . وإيقاعات سريعة . ومن ثم جاء عدد آياتها ثلاثاً وثمانين ، بينما هي أصغر وأقصر من سابقتها - سورة فاطر - وعدد آياتها خمس وأربعون .

وقصر الفواصل مع سرعة الإيقاع يطبع السورة بطابع خاص ، فتلاحق إيقاعاتها ، وتدق على الحس دقات متوالية ، يعمل على مضاعفة أثرها ما تحمله معها من الصور والظلال التي تخلعها المشاهد المتتابعة من بدء السورة إلى نهايتها . وهي متنوعة وموحية وعميقة الآثار .

والموضوعات الرئيسية للسورة هي موضوعات السور المكية . وهدفها الأول هو بناء أسس العقيدة . فهي تتعرض لطبيعة الوحي وصدق الرسالة منذ افتتاحها: (يس . والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم . . .) . وتسوق قصة أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ، لتحذر من عاقبة التكذيب بالوحي والرسالة ؛ وتعرض هذه العاقبة في القصة على طريقة القرآن في استخدام القصص لتدعيم قضاياه . وقرب نهاية السورة تعود إلى الموضوع ذاته: (وما علمناه الشعر - وما ينبغي له - إن هو إلا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين) . .

كذلك تتعرض السورة لقضية الألوهية والوحدانية . فيجيء استنكار الشرك على لسان الرجل المؤمن الذي جاء من أقصى المدينة ليحاج قومه في شأن المرسلين وهو يقول: وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون ؟ أتأخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقدون ؟ إني إذا لفي ضلال مبين . . . وقرب ختام السورة يجيء ذكر هذا الموضوع مرة أخرى: (واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون . لا يستطيعون نصرهم وهم جند محضرون) . .

والقضية التي يشدد عليها التركيز في السورة هي قضية البعث والنشور ، وهي تتردد في مواضع كثيرة في السورة . تجيء في أولها: (إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين) . . . وتأتي في قصة أصحاب القرية ، فيما وقع للرجل المؤمن . وقد كان جزاؤها العاجل في السياق: (قيل: ادخل الجنة . قال: يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين) . . . ثم ترد في وسط السورة: (ويقولون: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخضمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون) . . . ثم يستطرد السياق إلى مشهد كامل من مشاهد القيامة . وفي نهاية السورة ترد هذه القضية في صورة حوار (وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه . قال: من يحيي العظام وهي رميم ؟ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . . .

هذه القضايا المتعلقة ببناء العقيدة من أساسها , تتكرر في السور المكية . ولكنها تعرض في كل مرة من زاوية معينة , تحت ضوء معين , مصحوبة بمؤثرات تناسب جوها , وتتناسق مع إيقاعها وصورها وظلالها .

هذه المؤثرات منتزعة في هذه السورة من مشاهد القيامة - بصفة خاصة - ومن مشاهد القصة ومواقفها وحوارها . ومن مصارع الغابرين على مدار القرون . ثم من المشاهد الكونية الكثيرة المتنوعة الموحية: مشهد الأرض الميتة تدب فيها الحياة . ومشهد الليل يسلك منه النهار فإذا هو ظلام . ومشهد الشمس تجري لمستقر لها . ومشهد القمر يتدرج في منازلها حتى يعود كالعرجون القديم . ومشهد الفلك المشحون يحمل ذرية البشر الأولين . ومشهد الأنعام مسخرة للآدميين . ومشهد النطفة ثم مشهدها إنساناً وهو خصيم مبین ! ومشهد الشجر الأخضر تكمن فيه النار التي يوقدون !

وإلى جوار هذه المشاهد مؤثرات أخرى تلمس الوجدان الإنساني وتوقظه: منها صورة المكذبين الذين حقت عليهم كلمة الله بكفرهم فلم تعد تنفعهم الآيات والنذر: (إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون ; وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون). ومنها صورة نفوسهم في سرهم وفي علانيتهم مكشوفة لعلم الله لا يداريها منه ستار . . ومنها تصوير وسيلة الخلق بكلمة لا تزيد: (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن . فيكون). . وكلها مؤثرات تلمس القلب البشري وهو يرى مصداقها في واقع الوجود .

وبجري سياق السورة في عرض موضوعاتها في ثلاثة أشواط:

يبدأ الشوط الأول بالقسم بالحرفين: يا . سين وبالقرآن الحكيم , على رسالة النبي [ص] وأنه على صراط مستقيم . يتلو ذلك الكشف عن النهاية البائسة للغافلين الذين يكذبون . وهي حكم الله عليهم ألا يجدوا إلى الهداية سبيلاً , وأن يحال بينهم وبينها أبداً . وبيان أن الإنذار إنما ينفع من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب ; فاستعد قلبه لاستقبال دلائل الهدى وموجيات الإيمان . . ثم يوجه رسول الله [ص] إلى أن يضرب لهم مثلاً أصحاب القرية , فيقص قصة التكذيب وعاقبة المكذبين . كما يعرض طبيعة الإيمان في قلب الرجل المؤمن وعاقبة الإيمان والتصديق . .

ومن ثم يبدأ الشوط الثاني ببناء الحسرة على العباد الذين ما يفتأون يكذبون كل رسول ويستهزئون به . غير معتبرين بمصارع المكذبين , ولا متيقظين لآيات الله في الكون وهي كثير . . وهنا يعرض تلك المشاهد الكونية التي سبقت الإشارة إليها في تقديم السورة , كما يعرض مشهداً مطولاً من مشاهد القيامة فيه الكثير من التفصيل .

والشوط الثالث يكاد يلخص موضوعات السورة كلها . فينفي في أوله أن ما جاء به محمد [ص] شعر , وينفي عن الرسول كل علاقة بالشعر أصلاً . ثم يعرض بعض المشاهد واللمسات الدالة على الألوهية المتفردة , وينعى عليهم اتخاذ آلهة من دون الله يتبتغون عندهم النصر وهم الذين يقومون بحماية تلك الآلهة المدعاة ! . ويتناول قضية البعث والنشور فيذكرهم بالنشأة الأولى من نطفة ليروا أن إحياء العظام وهي رميم كتلك النشأة ولا غرابة ! ويذكرهم بالشجر الأخضر الذي تكمن فيه النار وهما في الظاهر بعيد من بعيد ! ويخلق السماوات والأرض وهو شاهد بالقدرة على خلق أمثالهم من البشر في الأولى والآخرة . . وأخيراً يجيء الإيقاع الأخير في السورة: (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن . فيكون . فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون).

والآن نأخذ بعد هذا العرض المجمل في التفصيل . .

الدرس الأول: 1 - 12 قدرة الله تعالى على عقاب الكافرين وجزاء المؤمنين

يس . والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم . لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون . لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون . إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون . وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرتهم لا يؤمنون . إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم . إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين . .

يقسم الله سبحانه بهذين الحرفين: يا . سين كما يقسم بالقرآن الحكيم . وهذا الجمع بين الأحرف المقطعة والقرآن يرجح الوجه الذي اخترناه في تفسير هذه الأحرف في أوائل السور ; والعلاقة بين ذكرها وذكر القرآن . وأن آية كونه من عند الله , الآية التي لا يتدبرونها فيردهم القرآن إليها , أنه مصوغ من جنس هذه الأحرف الميسرة لهم ; ولكن نسقه التفكير والتعبيري فوق ما يملكون صياغته من هذه الحروف .

وبصف القرآن - وهو يقسم به - بأنه (القرآن الحكيم). والحكمة صفة العاقل . والتعبير على هذا النحو يخلع على القرآن صفة الحياة والقصد والإرادة . وهي من مقتضيات أن يكون حكيماً . ومع أن هذا مجاز إلا أنه يصور حقيقة ويقربها . فإن لهذا القرآن لروحاً ! وإن له لصفات الحي الذي يعاطفك وتعاطفه حين تصفي له قلبك وتصغي له روحك ! وإنك لتطلع منه على دخائل وأسرار كلما فتحت له قلبك وخلصت له بروحك ! وإنك لتشتاق منه إلى ملامح وسمات , كما تشتاق إلى ملامح الصديق وسماته , حين تصاحبه فترة وتأنس به وتستروح ظلاله ! ولقد كان رسول الله [ص] يحب أن يسمع تلاوة القرآن من غيره ; ويقف على الأبواب ينصت إذا سمع من داخلها من يرتل هذا القرآن . كما يقف الحبيب وينصت لسيرة الحبيب !

والقرآن حكيم . يخاطب كل أحد بما يدخل في طوقه . ويضرب على الوتر الحساس في قلبه . ويخاطبه بقدر . ويخاطبه بالحكمة التي تصلحه وتوجهه .

والقرآن حكيم . يربي بحكمة , وفق منهج عقلي ونفسي مستقيم . منهج يطلق طاقات البشر كلها مع توجيهها الوجه الصالح القويم . ويقرر للحياة نظاماً كذلك يسمح بكل نشاط بشري في حدود ذلك المنهج الحكيم .

يقسم الله سبحانه بياء وسين والقرآن الحكيم على حقيقة الوحي والرسالة إلى الرسول الكريم:

(إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم). . .

وما به سبحانه من حاجة إلى القسم . ولكن هذا القسم منه - جل جلاله - بالقرآن وحروفه , يخلع على المقسم به عظمة وجلالاً , فما يقسم الله سبحانه إلا بأمر عظيم , يرتفع إلى درجة القسم به واليمين !

(إنك لمن المرسلين). . . والتعبير على هذا النحو يوحي بأن إرسال الرسل أمر مقرر , له سوابق مقررة . فليس هو الذي يراد إثباته . إنما المراد أن يثبت هو أن محمداً [ص]

من هؤلاء المرسلين . ويخاطبه هو بهذا القسم - ولا يوجهه إلى المنكرين المكذبين - ترفعاً بالقسم وبالرسول وبالرسالة عن أن تكون موضع جدل أو مناقشة . إنما هو الإخبار المباشر من الله للرسول .

(إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم).. .

وهذا بيان لطبيعة الرسالة بعد بيان حقيقة الرسول . وطبيعة هذه الرسالة الاستقامة . فهي قائمة كحد السيف لا عوج فيها ولا انحراف , ولا التواء فيها ولا ميل . الحق فيها واضح لا غموض فيه ولا التباس . ولا يميل مع هوى ولا ينحرف مع مصلحة . يجده من يطلبه في يسر وفي دقة وفي خلوص .

وهي لاستقامتها - بسيطة لا تعقيد فيها ولا لف ولا دوران . لا تعقد الأمور ولا توقع في إشكالات من القضايا

تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (5) لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (6) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (7) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْلًا فَيَهَي إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ (8) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (9)

والتصورات والأشكال الجدلية . وإنما تصدع بالحق في أبسط صورة من صورته , وأغراها عن الشوائب والأخلاق , وأغناها عن الشرح , وتفصيص العبارات وتوليد الكلمات , والدخول بالمعاني في الدروب والمنحنيات ! يمكن أن يعيش بها ومعها البادي والحاضر , والأمي والعالم , وساكن الكوخ وساكن العمارة ; ويجد فيها كل حاجته ; ويدرك منها ما تستقيم به حياته ونظامه وروابطه في يسر ولين .

وهي مستقيمة مع فطرة الكون وناموس الوجود , وطبيعة الأشياء والأحياء حول الإنسان , فلا تصدم طبائع الأشياء , ولا تكلف الإنسان أن يصدمه , إنما هي مستقيمة على نهجها , متناسقة معها , متعاونة كذلك مع سائر القوانين التي تحكم هذا الوجود وما فيه ومن فيه .

وهي من ثم مستقيمة على الطريق إلى الله , واصله إليه موصلة به , لا يخشى تابعتها أن يضل عن خالقه , ولا أن يلتوي عن الطريق إليه . فهو سالك درباً مستقيماً واصلاً ينتهي به إلى رضوان الخالق العظيم .

والقرآن هو دليل هذا الصراط المستقيم . وحيثما سار الإنسان معه وجد هذه الاستقامة في تصويره للحق , وفي التوجيه إليه , وفي أحكامه الفاصلة في القيم , ووضع كل قيمة في موضعها الدقيق .

(تنزيل العزيز الرحيم).. .

يعرّف الله عباده بنفسه في مثل هذه المواضع , ليدركوا حقيقة ما نزل إليهم . فهو العزيز القوي الذي يفعل ما يريد . وهو الرحيم بعباده الذي يفعل بهم ما يفعل , وهو يريد بهم الرحمة فيما يفعل .

فأما حكمة هذا التنزيل فهي الإنذار والتبليغ:

(لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون). .

والغفلة أشد ما يفسد القلوب . فالقلب الغافل قلب معطل عن وظيفته . معطل عن الالتقاط والتأثر والاستجابة . تمر به دلائل الهدى أو يمر بها دون أن يحسها أو يدركها . ودون أن ينبض أو يستقبل . ومن ثم كان الإنذار هو أليق شيء بالغفلة التي كان فيها القوم , الذين مضت الأجيال دون أن ينذروهم منذر , أو ينبههم منه . فهم من ذرية إسماعيل ولم يكن لهم بعده من رسول . فالإنذار قد يوقظ الغافلين المستغرقين في الغفلة , الذين لم يأتهم ولم يأت آباؤهم نذير .

ثم يكشف عن مصير هؤلاء الغافلين ; وعما نزل بهم من قدر الله , وفق ما علم الله من قلوبهم ومن أمرهم . ما كان منه وما سيكون:

(لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون). .

لقد قضي في أمرهم , وحق قدر الله على أكثرهم , بما علمه من حقيقتهم , وطبيعة مشاعرهم . فهم لا يؤمنون . وهذا هو المصير الأخير للأكثرين . فإن نفوسهم محجوبة عن الهدى مشدودة عن رؤية دلائله أو استشعارها .

وهنا يرسم مشهداً حسيّاً لهذه الحالة النفسية , يصورهم كأنهم مغلولون ممنوعون قسراً عن النظر , محال بينهم وبين الهدى والإيمان بالحواجز والسدود , مغطى على أبصارهم فلا يبصرون:

(إننا جعلنا في أعناقهم أغلالاً , فهي إلى الأذقان , فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً . فأغشيناهم فهم لا يبصرون). .

إن أيديهم مشدودة بالأغلال إلى أعناقهم , موضوعة تحت أذقانهم . ومن ثم فإن رؤوسهم مرفوعة قسراً , لا يملكون أن ينظروا بها إلى الأمام ! ومن ثم فهم لا يملكون حرية النظر والرؤية وهم في هذا المشهد العنيف !

وَسَوَاءَ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (10) إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (11) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلِّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ (12) وَاصْرَبْ لَهُمْ مَثَلًا بِأَصْحَابِ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13)

وهم إلى هذا محال بينهم وبين الحق والهدى بسد من أمامهم وسد من خلفهم ; فلو أرخي الشد فنظروا لم تنفذ أبصارهم كذلك من هذه السدود ! وقد سدت عليهم سبيل الرؤية وأغشيت أبصارهم بالكلال !

ومع عنف هذا المشهد الحسي وشدته فإن الإنسان ليلتقي بأناس من هذا النوع , يخيل إليه وهم لا يرون الحق الواضح ولا يدركونه أن هنالك حائلاً عنيماً كهذا بينهم وبينه . وأنه إذا لم تكن هذه الأغلال في الأيدي , وإذا لم تكن الرؤوس مقمحة ومجبرة على الإرتفاع , فإن نفوسهم وبصائرهم كذلك . مشدودة عن الهدى قسراً وملفوتة عن الحق لفتاً . وبينها وبين دلائل الهدى سد من هنا وسد من هناك . وكذلك كان أولئك الذين واجهوا هذا

القرآن يمثل ذلك الإنكار والجحود . وهو يصدع بالحجة , ويدلي بالبرهان . وهو بذاته حجة ذات سلطان لا يتماسك لها إنسان .

(وسواء عليهم أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) . .

فلقد قضى الله فيهم بأمره , بما علمه من طبيعة قلوبهم التي لا ينفذ إليها الإيمان . ولا ينفذ الإنذار قلباً غير مهياً للإيمان , مشدود عنه , محال بينه وبينه بالسدود . فالإنذار لا يخلق القلوب , إنما يوقظ القلب الحي المستعد للتلقي:

(إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب , فبشره بمغفرة وأجر كريم) . .

والذكر يراد به هنا القرآن - على الأرجح - والذي اتبع القرآن , وخشي الرحمن دون أن يراه , هو الذي ينتفع بالإنذار , فكأنه هو وحده الذي وجه إليه الإنذار . وكأنما الرسول [ص] قد خصه به , وإن كان قد عمم . إلا أن أولئك حيل بينهم وبين تلقيه , فانحصر في من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب . وهذا يستحق التبشير بعد انتفاعه بالإنذار: (فبشره بمغفرة وأجر كريم) . . المغفرة عما يقع فيه من الخطايا غير مصر . والأجر الكريم على خشية الرحمن بالغيب , واتباعه لما أنزل الرحمن من الذكر . وهما متلازمان في القلب . فما تجل خشية الله في قلب إلا واتباعها العمل بما أنزل . والاستقامة على النهج الذي أراد .

وهنا يؤكد وقوع البعث ; ودقة الحساب , الذي لا يفوته شيء:

(إننا نحن نحيي الموتى , ونكتب ما قدموا وآثارهم , وكل شيء أحصيناه في إمام مبين) . .

وإحياء الموتى هو إحدى القضايا التي استغرقت جدلاً طويلاً . وسيرد منه في هذه السورة أمثلة متنوعة . وهو يندبرهم أن كل ما قدمت أيديهم من عمل , وكل ما خلفته أعمالهم من آثار , كلها تكتب وتحصى , فلا يند منها شيء ولا ينسى . والله سبحانه هو الذي يحيي الموتى , وهو الذي يكتب ما قدموا وآثارهم , وهو الذي يحصي كل شيء ويثبته . فلا بد إذن من وقوع هذا كله على الوجه الذي يليق بكل ما تتولاه يد الله .

والإمام المبين . واللوح المحفوظ . وأمثالها . أقرب تفسير لها هو علم الله الأزلي القديم وهو بكل شيء محيط .

الدرس الثاني: 13 - 19 إرسال الله تعالى الرسل وتكذيب الكافرين لهم والعقاب لهم على ذلك

وبعد عرض قضية الوحي والرسالة , وقضية البعث والحساب , في هذه الصورة التقريرية , يعود السياق ليعرضهما في صورة قصصية . تلمس القلب بما كان من مواقف التكذيب والإيمان وعواقبهما معروضة كالعيان:

واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون . إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث , فقالوا: إنا إليكم مرسلون . قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا , وما أنزل الرحمن من شيء , إن أنتم إلا تكذبون . قالوا: ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون . وما علينا إلا البلاغ المبين . قالوا: إنا تطيرنا بكم لنن لهم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم

إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ (14) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (15) قَالُوا رَبَّنَا عَلِّمْنَا لَنَا لِمَا نَدْعُوهُم بِهِمْ لَعَلَّكُمْ تَهْتَكُونَ (16) وَمَا عَلَّمْنَا لَنَا التَّبْلَغَ الْمُبِينُ (17) .
منا عذاب أليم قالوا: طائركم معكم , إن ذكرتم ? بل أنتم قوم مسرفون) . .

ولم يذكر القرآن من هم أصحاب القرية ولا ما هي القرية . وقد اختلفت فيها الروايات .
ولا طائل وراء الجري مع هذه الروايات .

وعدم إفصاح القرآن عنها دليل على أن تحديد اسمها أو موضعها لا يزيد شيئاً في دلالة القصة وإيحائها . ومن ثم أغفل التحديد , ومضى إلى صميم العبرة وليابها . فهي قرية أرسل الله إليها رسولين . كما أرسل موسى وأخاه هارون - عليهما السلام - إلى فرعون وملئه . فكذبهما أهل تلك القرية , فعززهما الله برسول ثالث يؤكد أنه وأنهما رسل من عند الله . وتقدموا ثلاثهم بدعواهم ودعوتهم من جديد (فقالوا: إنا إليكم مرسلون) . .

هنا اعترض أهل القرية عليهم بالاعتراضات المكرورة في تاريخ الرسل والرسالات . .
(قالوا: ما أنتم إلا بشر مثلنا) . . (وما أنزل الرحمن من شيء) . . (إن أنتم إلا تكذبون) . .

وهذا الاعتراض المتكرر على بشرية الرسل تبدو فيه سذاجة التصور والإدراك , كما يبدو فيه الجهل بوظيفة الرسول . قد كانوا يتوقعون دائماً أن يكون هناك سر غامض في شخصية الرسول وحياته تكمن وراءه الأوهام والأساطير . . أليس رسول السماء إلى الأرض فكيف لا تحيط به الأوهام والأساطير ? كيف يكون شخصية مكشوفة بسيطة لا أسرار فيها ولا ألغاز حولها ?! شخصية بشرية عادية من الشخصيات التي تمتلئ بها الأسواق والبيوت ?!

وهذه هي سذاجة التصور والتفكير . فالأسرار والألغاز ليست صفة ملازمة للنبوة والرسالة . وليست في هذه الصورة الساذجة الطفولية . وإن هنالك لسراً هائلاً ضخماً , ولكنه يتمثل في الحقيقة البسيطة الواقعة . حقيقة إيداع إنسان من هؤلاء البشر الاستعداد اللدني الذي يتلقى به وحي السماء , حين يختاره الله لتلقي هذا الوحي العجيب . وهو أعجب من أن يكون الرسول ملكاً كما كانوا يقترحون !

والرسالة منهج إلهي تعيشه البشرية . وحياة الرسول هي النموذج الواقعي للحياة وفق ذلك المنهج الإلهي . النموذج الذي يدعو قومه إلى الاقتداء به . وهم بشر . فلا بد أن يكون رسولهم من البشر ليحقق نموذجاً من الحياة يملكون هم أن يقلدوه .

ومن ثم كانت حياة الرسول [ص] معروضة لأنظار أمته . وسجل القرآن - كتاب الله الثابت - المعالم الرئيسية في هذه الحياة بأصغر تفصيلاتها وأحداثها , بوصفها تلك الصفحة المعروضة لأنظار أمته على مدار السنين والقرون . ومن هذه التفصيلات حياته المنزلية والشخصية . حتى خطرات قلبه سجلها القرآن في بعض الأحيان , لتطلع عليها الأجيال وترى فيها قلب ذلك النبي الإنسان .

ولكن هذه الحقيقة الواضحة القريبة هي التي ظلت موضع الاعتراض من بني الإنسان !

ولقد قال أهل تلك القرية لرسلم الثلاثة: (ما أنتم إلا بشر مثلنا). . . وقصدوا أنكم لستم برسلم . . . (وما أنزل الرحمن من شيء). . . مما تدعون أنه نزل عليكم من الوحي والأمر بأن تدعونا إليه . (إن أنتم إلا تكذبون). . . وتدعون أنكم مرسلون !

وفي ثقة المطمئن إلى صدقه , العارف بحدود وظيفته أجابهم الرسل:

(قالوا:ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون . وما علينا إلا البلاغ المبين). . .

إن الله يعلم . وهذا يكفي . وإن وظيفة الرسل البلاغ . وقد أدوه . والناس بعد ذلك أحرار فيما يتخذون

قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ يَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (18) قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (19)
لأنفسهم من تصرف . وفيما يحملون في تصرفهم من أوزار . والأمر بين الرسل وبين الناس هو أمر ذلك التبليغ عن الله ; فمتى تحقق ذلك فالأمر كله بعد ذلك إلى الله .

ولكن المكذبين الضالين لا يأخذون الأمور هذا المآخذ الواضح السهل اليسير ; ولا يطبقون وجود الدعاة إلى الهدى (فتأخذهم العزة بالإثم)ويعمدون إلى الأسلوب الغليظ العنيف في مقاومة الحجة لأن الباطل ضيق الصدر عرييد:

(قالوا:إنا تطيرنا بكم ! لئن لم تنتهوا لنرجمنكم , وليمسنكم منا عذاب أليم). . .

قالوا:إننا نتشاءم منكم ; ونتوقع الشر في دعوتكم ; فإن لم تنتهوا عنها فإننا لن نسكت عليكم , ولن ندعكم في دعوتكم: (لنرجمنكم , وليمسنكم منا عذاب أليم). . .

وهكذا أسفر الباطل عن غشمه ; وأطلق على الهداة تهديده ; وبغى في وجه كلمة الحق الهادئة , وعربد في التعبير والتفكير !

ولكن الواجب الملقى على عاتق الرسل يقضي عليهم بالمضي في الطريق:

(قالوا:طائركم معكم). . .

فالقول بالتشاؤم من دعوة أو من وجه هو خرافة من خرافات الجاهلية . والرسل يبينون لقومهم أنها خرافة ; وأن حظهم ونصيبهم من خير ومن شر لا يأتيهم من خارج نفوسهم . إنما هو معهم . مرتبط بنواياهم وأعمالهم , متوقف على كسبهم وعملهم . وفي وسعهم أن يجعلوا حظهم ونصيبهم خيراً أو أن يجعلوه شراً . فإن إرادة الله بالعبد تنفذ من خلال نفسه , ومن خلال اتجاهه , ومن خلال عمله . وهو يحمل طائره معه . هذه هي الحقيقة الثابتة القائمة على أساس صحيح . أو التشاؤم بالوجوه , أما التشاؤم بالأمكنة أو التشاؤم بالكلمات . . . فهو خرافة لا تستقيم على أصل مفهوم !

وقالوا لهم: أئن ذكرتم ? . . .

يعني أترجموننا وتعذبوننا لأننا نذكركم ! أفهذا جزاء التذكير ?

(بل أنتم قوم مسرفون) . .

تتجاوزون الحدود في التفكير والتقدير ; وتجاوزون على الموعدة بالتهديد والوعيد ; وتردون على الدعوة بالرجم والتعذيب !

الدرس الثالث: 20 - 25 الرجل المؤمن يدعو قومه لاتباع المرسلين

تلك كانت الاستجابة من القلوب المغلقة على دعوة الرسل . وهي مثل للقلوب التي تحدث عنها السورة في الجولة الأولى ; وصورة واقعية لذلك النموذج البشري المرسوم هناك .

فأما النموذج الآخر الذي اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب , فكان له مسلك آخر وكانت له استجابة غير هذه الاستجابة:

وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى ; قال: يا قوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون . ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون ? أتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقدون ? إني إذاً لفي ضلال مبين . إني أمنت بربكم فاسمعون . .

إنها استجابة الفطرة السليمة لدعوة الحق المستقيمة . فيها الصدق . والبساطة . والحرارة . واستقامة الإدراك .

وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21) وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22) وتلبية الإيقاع القوي للحق المبين .

فهذا رجل سمع الدعوة فاستجاب لها بعد ما رأى فيها من دلائل الحق والمنطق ما يتحدث عنه في مقالته لقومه . وحينما استشعر قلبه حقيقة الإيمان تحركت هذه الحقيقة في ضميره فلم يطق عليها سكوتاً ; ولم يقنع في داره بعقيدته وهو يرى الضلال من حوله والجحود والفجور ; ولكنه سعى بالحق الذي استقر في ضميره وتحرك في شعوره . سعى به إلى قومه وهم يكذبون وبجحدون ويتوعدون ويهددون . وجاء من أقصى المدينة يسعى ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلى الحق , وفي كفهم عن البغي , وفي مقاومة اعتدائهم الأثيم الذي يوشكون أن يصبوه على المرسلين .

وظاهر أن الرجل لم يكن ذا جاه ولا سلطان . ولم يكن في عزوة من قومه أو منعة من عشيرته . ولكنها العقيدة الحية في ضميره تدفعه وتجيء به من أقصى المدينة إلى أقصاها . .

(قال: يا قوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون) . .

إن الذي يدعو مثل هذه الدعوة , وهو لا يطلب أجراً , ولا يتبغي مغنماً . . إنه لصادق . وإلا فما الذي يحمله على هذا العناء إن لم يكن يلبي تكليفاً من الله ? ما الذي يدفعه إلى حمل هم الدعوة ? ومجاهدة الناس بغير ما ألفوا من العقيدة ? والتعرض لأذاهم وشركهم واستهزائهم وتنكيلهم , وهو لا يجني من ذلك كسباً , ولا يطلب منهم أجراً ?

(اتبعوا من لا يسألكم أجراً). . (وهم مهتدون). .

وهدهم واضح في طبيعة دعوتهم . فهم يدعون إلى إله واحد . ويدعون إلى نهج واضح . ويدعون إلى عقيدة لا خرافة فيها ولا غموض . فهم مهتدون إلى نهج سليم , وإلى طريق مستقيم .

ثم عاد يتحدث إليهم عن نفسه هو وعن أسباب إيمانه , ويناشد فيهم الفطرة التي استيقظت فيه فاقتنعت بالبرهان الفطري السليم:

ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون ؟ أتأخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقدون ؟ إني إذاً لفي ضلال مبين . .

إنه تساؤل الفطرة الشاعرة بالخالق , المشدودة إلى مصدر وجودها الوحيد . (ومالي لا أعبد الذي فطرني ؟) وما الذي يحيد بي عن هذا النهج الطبيعي الذي يخطر على النفس أول ما يخطر ؟ إن الفطر مجذوبة إلى الذي فطرها , تتجه إليه أول ما تتجه , فلا تنحرف عنه إلا بدافع آخر خارج على فطرتها . ولا تلتوي إلا بمؤثر آخر ليس من طبيعتها . والتوجه إلى الخالق هو الأولى , وهو الأول , وهو المتجه الذي لا يحتاج إلى عنصر خارج عن طبيعة النفس وانجذابها الفطري . والرجل المؤمن يحس هذا في قرارة نفسه , فيعبر عنه هذا التعبير الواضح البسيط , بلا تكلف ولا لف ولا تعقيد !

وهو يحس بفطرته الصادقة الصافية كذلك أن المخلوق يرجع إلى الخالق في النهاية . كما يرجع كل شيء إلى مصدره الأصيل . فيقول:

(وإليه ترجعون). .

ويتساءل لم لا أعبد الذي فطرني , والذي إليه المرجع والمصير ؟ ويتحدث عن رجعتهم هم إليه . فهو خالقهم كذلك . ومن حقه أن يعبدوه .

أَتَأْخُذُ مِنِّي دُونَهُ آلِهَةً إِن يُرَدِّنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونَ (23)
إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (24) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (25) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (27) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (28) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (29)

ثم يستعرض المنهج الآخر المخالف للمنهج الفطري المستقيم . فيراه ضلالاً بيناً: (أأخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقدون ؟) . .

وهل أضل ممن يدع منطق الفطرة الذي يدعو المخلوق إلى عبادة خالقه , وينحرف إلى عبادة غير الخالق بدون ضرورة ولا دافع ؟ وهل أضل ممن ينحرف عن الخالق إلى آلهة ضعاف لا يحمونه ولا يدفعون عنه الضر حين يريد به خالقه الضر بسبب انحرافه وضلاله ؟

(إني إذاً لفي ضلال مبين). .

والآن وقد تحدث الرجل بلسان الفطرة الصادقة العارفة الواضحة يقرر قراره الأخير في وجه قومه المكذبين المهديين المتوعددين . لأن صوت الفطرة في قلبه أقوى من كل تهديد ومن كل تكذيب:

(إني آمنت بربكم فاسمعون) . .

وهكذا ألقى بكلمة الإيمان الواثقة المطمئنة . وأشهدهم عليها . وهو يوحى إليهم أن يقولوها كما قالها . أو أنه لايبالي بهم ماذا يقولون !

الدرس الرابع: 26 - 27 استشهاد الرجل المؤمن ودخوله الجنة

ويوحى سياق القصة بعد ذلك أنهم لم يمهلوه أن قتلوه . وإن كان لا يذكر شيئاً من هذا صراحة . إنما يسدل الستار على الدنيا ومِما فيها , وعلى القوم وما هم فيه ; ويرفعه لنرى هذا الشهيد الذي جهر بكلمة الحق , متبعاً صوت الفطرة , وقذف بها في وجوه من يملكون التهديد والتنكيل . نراه في العالم الآخر . ونطلع على ما ادخر الله له من كرامة . تليق بمقام المؤمن الشجاع المخلص الشهيد:

(قيل: ادخل الجنة . قال: يا ليت قومي يعلمون . بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين).

وتتصل الحياة الدنيا بالحياة الآخرة . ونرى الموت نقلة من عالم الفناء إلى عالم البقاء . وخطوة يخلص بها المؤمن من ضيق الأرض إلى سعة الجنة . ومن تطاول الباطل إلى طمأنينة الحق . ومن تهديد البغي إلى سلام النعيم . ومن ظلمات الجاهلية إلى نور اليقين .

ونرى الرجل المؤمن . وقد اطلع على ما آتاه الله في الجنة من المغفرة والكرامة , يذكر قومه طيب القلب رضي النفس , يتمنى لو يراه قومه ويرون ما آتاه ربه من الرضى والكرامة , ليعرفوا الحق , معرفة اليقين .

الدرس الخامس: 28 - 29 إهلاك أصحاب القرية بالصيحة

هذا كان جزاء الإيمان . فأما الطغيان فكان أهون على الله من أن يرسل عليه الملائكة لتدمره . فهو ضعيف ضعيف:

(وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء . وما كنا منزلين . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون) . .

ولا يطيل هنا في وصف مصرع القوم , تهويناً لشأنهم , وتصغيراً لقدرهم . فما كانت إلا صيحة واحدة أخدمت أنفاسهم . . ويسدل الستار على مشهدهم البائس المهين الذليل !

يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (30) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (31) وَإِن كُلُّ لُحْمٍ لِّمِا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (32) وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (33) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَقَجْرَتَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (34) لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا

يَشْكُرُونَ (35) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا
يَعْلَمُونَ (36)

الوحدة الثانية: 30 - 68 الموضوع: ذم الكفار لعنادهم وعرض آيات كونية ومشاهد من
الآخرة مقدمة الوحدة

بعد الحديث في الدرس الأول عن المشركين الذين واجهوا دعوة الإسلام بالكذب ;
والمثل الذي ضربه لهم في قصة أصحاب القرية المكذبين ; وما انتهى إليه أمرهم (فإذا
هم خامدون). . يبدأ الحديث في هذا الدرس بالتعميم في موقف المكذبين بكل ملة
ودين ; ويعرض صورة البشرية الضالة على مدار القرون , وينادي على العباد نداء
الحسرة وهم لا يتعظون بمصارع الهالكين , الذين يذهبون أمامهم ولا يرجعون إلا يوم
الدين:

(وإن كل لما جميع لدينا محضرون)

ثم يأخذ في استعراض الآيات الكونية التي يمرون عليها معرضين غافلين ; وهي مبنوثة
في أنفسهم وفيما حولهم وفي تاريخهم القديم . . وهم مع هذا لا يشعرون وإذا ذكروا لا
يذكرون:(وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين). . وهم يستعجلون
بالعذاب غير مصدقين:(ويقولون: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين)

وبمناسبة الاستعجال والتكذيب يستعرض مشهداً مطولاً من مشاهد القيامة يرون فيه
مصيرهم الذي به يستعجلون , كأنه حاضر تراه العيون .

الدرس الأول: 30 - 32 الحسرة على الكفار الهالكين ولفت أنظارهم للسابقين

يا حسرة على العباد ! ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون . ألم يروا كم أهلكنا
قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ? وإن كل لما جميع لدينا محضرون . .

والحسرة انفعال نفسي على حال مؤسفة لا يملك الإنسان شيئاً حيالها , سوى أن
يتحسر وتآلم نفسه . والله - سبحانه وتعالى - لا يتحسر على العباد ; ولكنه يقرر أن حالة
هؤلاء العباد مما يستحق حسرة المتحسرين ! فهي حال بائسة مؤسفة تنتهي بأصحابها
إلى شر وخيم وبلاء عظيم !

يا حسرة على العباد تتاح لهم فرصة النجاة فيعرضون عنها , وأمامهم مصارع الهالكين
قبلهم لا يتدبرونها ولا ينتفعون بها . ويفتح الله لهم أبواب رحمته بإرسال الرسل إليهم
الحين بعد الحين ; ولكنهم يتجافون أبواب الرحمة ويسئئون الأدب مع الله: ما يأتيهم من
رسول إلا كانوا به يستهزؤون . .

(ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون). .

ولقد كان في هلاك الأولين الذاهبين لا يرجعون , على مدار السنين وتطاول القرون . .
لقد كان في هذا عظة لمن يتدبر . ولكن العباد البائسين لا يتدبرون . وهم صائرون إلى
ذات المصير . فأية حالة تدعو إلى الحسرة كهذا الحال الأسيف !

إن الحيوان ليرجف حين يرى مصرع أخيه أمامه ; ويحاول أن يتوقاه قدر ما يستطيع .
فما بال الإنسان يرى المصارع تلو المصارع , ثم يسير مندفعاً في ذات الطريق ?

والغرور يملي له ويخدعه عن رؤية المصير المطروق ! وهذا الخط الطويل من مصارع القرون معروض على الأنظار ولكن العباد كأنهم عمي لا يبصرون !

وإذا كان الهالكون الذاهبون لا يرجعون إلى خلفائهم المتأخرين , فإنهم ليسوا بمتروكين ولا مفلتين من حساب الله بعد حين . .

(وإن كل لما جميع لدينا محضرون) . .

الدرس الثاني: 33 - 36 آيات الله في المطر والنبات والثمرات

وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون ; وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب , وفجرنا فيها من العيون , ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم , أفلا يشكرون ? سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون . .

إنهم يكذبون الرسل , ولا يتدبرون مصارع المكذبين , ولا يدركون دلالة كونهم يذهبون ولا يرجعون . والرسل إنما يدعونهم إلى الله . وكل ما في الوجود حولهم يحدثهم عن الله , ويدل عليه ويشهد بوجوده . وهذه هي الأرض القريبة منهم , يرونها ميتة لا حياة فيها , ولا ماء ينشئ الحياة , ثم يرونها حية تنبت الحب , وتزدان بالجنات من نخيل وأعناب , وتتفجر فيها العيون , فتجري بالحياة حيث تجري .

والحياة معجزة لا تملك يد البشر أن تجريها ; إنما هي يد الله التي تجري المعجزات , وتبث روح الحياة في الموات . وإن رؤية الزرع النامي , والجنات الوارفة , والثمر الينع , لتفتح العين والقلب على يد الله المبدعة , وهي تشق التربة عن النبتة المتطلعة للحرية والنور , وتنض العود المستشرف للشمس والضياء , وتزين الغصن اللدن بالورق والثمار , وتفتح الزهرة وتنضج الثمرة , وتهيبها للجنى والقطاف . . (ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم) . . ويد الله هي التي أقدرتهم على العمل , كما أقدرت الزرع على الحياة والنماء ! (أفلا يشكرون ?).

وبلتفت عنهم بعد هذه اللمسة الرفيقة ليسبح الله الذي أطلع لهم النبت والجنات , وجعل الزرع أزواجاً ذكراناً وإناثاً كالناس وكغيرهم من خلق الله الذي لا يعلمه سواه:

(سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون) . .

وهذه التسبيحة تنطلق في أوانها وفي موضعها ; وترتسم معها حقيقة ضخمة من حقائق هذا الوجود . حقيقة وحدة الخلق . . وحدة القاعدة والتكوين . . فقد خلق الله الأحياء أزواجاً . النبات فيها كالإنسان . ومثل ذلك غيرهما . . (ومما لا يعلمون) . . وإن هذه الوحدة لتشي بوحدة اليد المبدعة . التي توجد قاعدة التكوين مع اختلاف الأشكال والأحجام والأنواع والأجناس , والخصائص والسمات , في هذه الأحياء التي لا يعلم علمها إلا الله . .

وآيَةُ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (37) وَالسَّمَاسُ تُجْرِي لِمْسْتَقَرِّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَا هَ مَتَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39)

ومن يدري فربما كانت هذه قاعدة الكون كله حتى الجماد ! وقد أصبح معلوماً أن الذرة - أصغر ما عرف من قبل من أجزاء المادة - مؤلفة من زوجين مختلفين من الإشعاع الكهربائي ، سالب وموجب يتزاوجان ويتحدان ! كذلك شوهدت ألوف من الثنائيات النجمية . تتألف من نجمين مرتبطين يشد بعضهما بعضاً ، ويدوران في مدار واحد كأنما يوقعان على نغمة رتيبة !

الدرس الثالث: 37-40 آيات الله في الليل والنهار والفضاء

تلك آية الأرض المينة تنشق فيها الحياة . . ومنها إلى آية السماء وما يتعلق بها من ظواهر يراها العباد رأي العين ، وبد الله تجربها بالخوارق المعجزات:

(وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون) . .

ومشهد قدوم الليل ، والنور يختفي والظلمة تغشى . . مشهد مكرور يراه الناس في كل بقعة في خلال أربع وعشرين ساعة [فيما عدا بعض المواقع التي يدوم فيها النهار كما يدوم فيها الليل أسابيع وأشهرًا قرب القطبين في الشمال والجنوب] وهو مع تكراره اليومي عجيبة تدعو إلى التأمل والتفكير .

والتعبير القرآني عن هذه الظاهرة - في هذا الموضع - تعبير فريد . فهو يصور النهار متلبساً بالليل ؛ ثم ينزع الله النهار من الليل فإذا هم مظلمون . ولعلنا ندرك شيئاً من سر هذا التعبير الفريد حين نتصور الأمر على حقيقته . فالأرض الكروية في دورتها حول نفسها في مواجهة الشمس تمر كل نقطة منها بالشمس ؛ فإذا هذه النقطة نهار ؛ حتى إذا دارت الأرض وانزوت تلك النقطة عن الشمس ، انسلخ منها النهار ولفها الظلام - وهكذا تتوالى هذه الظاهرة على كل نقطة بانتظام وكأنما نور النهار ينزع أو يسلك فيحل محله الظلام . فهو تعبير مصور للحقيقة الكونية أدق تصوير .

(والشمس تجري لمستقر لها) . .

والشمس تدور حول نفسها . وكان المظنون أنها ثابتة في موضعها الذي تدور فيه حول نفسها . ولكن عرف أخيراً أنها ليست مستقرة في مكانها . إنما هي تجري . تجري فعلاً . تجري في اتجاه واحد في الفضاء الكوني الهائل بسرعة حسيها الفلكيون باثني عشر ميلاً في الثانية ! والله - ربها الخبير بها وبجربانها وبمصيرها - يقول: إنها تجري لمستقر لها . هذا المستقر الذي ستنتهي إليه لا يعلمه إلا هو سبحانه . ولا يعلم مواعده سواه .

وحين نتصور ان حجم هذه الشمس يبلغ نحو مليون ضعف لحجم أرضنا هذه . وأن هذه الكتلة الهائلة تتحرك وتجري في الفضاء ، لا يسندها شيء ، ندرك طرفاً من صفة القدرة التي تصرف هذا الوجود عن قوة وعن علم:

(ذلك تقدير العزيز العليم) . .

(والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) . .

والعباد يرون القمر في منازلها تلك . يولد هلالاً . ثم ينمو ليلة بعد ليلة حتى يستدير بديراً . ثم يأخذ في التناقص حتى يعود هلالاً مقوساً كالعرجون القديم . والعرجون هو العذق الذي يكون فيه البلح من النخلة .

والذي يلاحظ القمر ليلة بعد ليلة يدرك ظل التعبير القرآني العجيب: (حتى عاد كالعرجون القديم). . وبخاصة ظل ذلك اللفظ (القديم). فالقمر في لياليه الأولى هلال . وفي لياليه الأخيرة هلال . . ولكنه في

لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40)
وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ (41) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (42)

الأولى يبدو وكأن فيه نضارة وفتوة . وفي الأخير يطلع وكأنما يغشاه سهوم ووجوم , وبكسوه شحوب وذبول . ذبول العرجون القديم ! فليست مصادفة أن يعبر القرآن الكريم عنه هذا التعبير الموحى العجيب !

والحياة مع القمر ليلة بعد ليلة تثير في الحس مشاعر وخواطر ندية ثرية موحية عميقة . والقلب البشري الذي يعيش مع القمر دورة كاملة , لا ينجو من تأثيرات واستجابات , ومن سبحات مع اليد المبدعة للجمال والجلال ; المدبرة للأجرام بذلك النظام . سواء كان يعلم سر هذه المنازل والأشكال القمرية المختلفة أو لا يعلم . فالمشاهدة وحدها كفيلة بتحريك القلب , واستجاشة الشعور , وإثارة التدبر والتفكير .

وأخيراً يقرر دقة النظام الكوني الذي يحكم هذه الأجرام الهائلة , ويرتب الظواهر الناشئة عن نظامها الموحد الدقيق:

(لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر , ولا الليل سابق النهار , وكل في فلك يسبحون). . .

ولكل نجم أو كوكب فلك , أو مدار , لا يتجاوزه في جريانه أو دورانه . والمسافات بين النجوم والكواكب مسافات هائلة . فالمسافة بين أرضنا هذه وبين الشمس تقدر بنحو ثلاثة وتسعين مليوناً من الأميال . والقمر يبعد عن الأرض بنحو أربعين ومائتي ألف من الأميال . . وهذه المسافات على بعدها ليست شيئاً يذكر حين تقاس إلى بعد ما بين مجموعتنا الشمسية وأقرب نجم من نجوم السماء الأخرى إلينا . وهو يقدر بنحو أربع سنوات ضوئية . وسرعة الضوء تقدر بستة وثمانين ومائة ألف من الأميال في الثانية الواحدة! [أي إن أقرب نجم إلينا يبعد عنا بنحو مائة وأربعة مليون مليون ميل !] .

وقد قدر الله خالق هذا الكون الهائل أن تقوم هذه المسافات الهائلة بين مدارات النجوم والكواكب . ووضع تصميم الكون على هذا النحو ليحفظه بمعرفته من التصادم والتصدع - حتى يأتي الأجل المعلوم - فالشمس لا ينبغي لها أن تدرك القمر . والليل لا يسبق النهار , ولا يزحمه في طريقه , لأن الدورة التي تجيء بالليل والنهار لا تختل أبداً فلا يسبق أحدهما الآخر أو يزحمه في الجريان !

(وكل في فلك يسبحون). . .

وحركة هذه الأجرام في الفضاء الهائل أشبه بحركة السفين في الخضم الفسيح . فهي مع ضخامتها لا تزيد على أن تكون نقطاً سابحة في ذلك الفضاء المرهوب .

وإن الإنسان ليتضاءل ويتضاءل , وهو ينظر إلى هذه الملايين التي لا تحصى من النجوم الدوارة , والكواكب السيارة . متناثرة في ذلك الفضاء , سابحة في ذلك الخضم , والفضاء من حولها فسيح فسيح وأحجامها الضخمة تائهة في ذلك الفضاء الفسيح !!!

الدرس الرابع: 41 آيات الله في تسخير البحار والسفن للناس

(وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون , وخلقنا لهم من مثله ما يركبون , وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون , إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين) . .

إن في السياق مناسبة لطيفة بين النجوم والكواكب السابحة في أفلاكها , والفلك المشحون السابح في الماء يحمل ذرية بني آدم ! مناسبة في الشكل , ومناسبة في الحركة , ومناسبة في تسخير هذا وذلك بأمر الله , وحفظه بقدرته في السماوات والأرض سواء .

وهذه آية كتلك يراها العباد ولا يتدبرونها . بل هذه أقرب إليهم وأيسر تدبراً لو فتحوا قلوبهم للآيات .

وَإِنْ تَنْشَأُ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ (43) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعاً إِلَىٰ حِينٍ (44)
وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (45) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (46)

ولعل الفلك المشحون المذكور هنا هو فلك نوح أبي البشر الثاني ; الذي حمل فيه ذرية آدم . ثم جعل الله لهم من مثله هذه السفن التي تمخر بهم العباب . وهؤلاء وهؤلاء حملتهم قدرة الله ونواميسه التي تحكم الكون وتصرفه ; وتجعل الفلك يعوم على وجه الماء , بحكم خواص الفلك , وخواص الماء , وخواص الريح أو البخار , أو الطاقة المنطلقة من الذرة , أو غيرها من القوى . وكلها من أمر الله وخلقته وتقديره .

(وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون . إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين) . .
والسفينة في الخضم كالريشة في مهب الريح , مهما ثقلت وضخمت وأتقن صنعها . وإلا تدركها رحمة الله فهي هالكة هالكة في لحظة من ليل أو نهار . والذين ركبوا البحار سواء عبروها في قارب ذي شراع أو في عابرة ضخمة للمحيط , يدركون هول البحر المخيف ; وضآلة العصمة من خطره الهائل وغضبه الجبار . ويحسون معنى رحمة الله ; وأنها وحدها العاصم بين العواصف والتيارات في هذا الخلق الهائل الذي تمسك يد الرحمة الإلهية عنانه الجامع , ولا تمسكه يد سواها في أرض أو سماء . وذلك حتى يقضي الكتاب أجله , ويحل الموعد المقدر في حينه , وفق ما قدره الحكيم الخبير: ومتاعاً إلى حين . .

الدرس الخامس: 45 - 48 غفلة الكفار عن آيات الله وإنكارهم البعث

ومع تلك الآيات الواضحات فالعباد في غفلة , لا تتوجه أنظارهم , ولا تستيقظ قلوبهم ; ولا يكفون عن سخريتهم وتكذيبهم , واستعجالهم بالعذاب الذي يندرهم به المرسلون:

(وإذا قيل لهم: اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون . وما تأتئهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين . وإذا قيل لهم: أنفقوا مما رزقكم الله , قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ? إن أنتم إلا في ضلال مبين . ويقولون: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ?) . .

إن تلك الآيات بذاتها لا تثير في قلوبهم التطلع والتدبر والحساسية والتقوى . وهي بذاتها كافية أن تثير في القلب المفتوح هزة ورعشة وانتفاضة ; وأن تخلطه بهذا الوجود . هذا الكتاب المفتوح الذي تشير كل صفحة من صفحاته إلى عظمة الخالق , ولطيف تدبيره وتقديره . ولكن هؤلاء المطموسين لا يرونها . وإذا رأوها لا يتدبرونها . والله - لعظيم رحمته - لا يتركهم مع هذا بلا رسول يذرهم ويوجههم ويدعوهم إلى رب هذا الكون وبارئ هذا الوجود . ويثير في قلوبهم الحساسية والخوف والتقوى ويحذرهم موجبات الغضب والعذاب , وهي محيطة بهم , من بين أيديهم ومن خلفهم , إلا ينتبهوا لها يقعوا فيها في كل خطوة من خطواتهم . وتتوالى عليهم الآيات مضافة إلى الآيات الكونية التي تحيط بهم في حيثما يتجهون . ولكنهم مع هذا يظنون في عمايتهم سادرين:

(وإذا قيل لهم: اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون . وما تأتئهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين) . .

وإذا دعوا إلى إنفاق شيء من مالهم لإطعام الفقراء: قالوا ساخرين متعنتين:
(أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ?) . .

وتناولوا على من يدعونهم إلى البر والإنفاق قائلين:

(إن أنتم إلا في ضلال مبين)!

وتصورهم للأمر على هذا النحو الآلي يشي بعدم إدراكهم لسنن الله في حياة العباد . فالله هو مطعم الجميع ,

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (47) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (48) مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (49) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (50) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (51) وهو رازق الجميع . وكل ما في الأرض من أرزاق ينالها العباد هي من خلقه , فلم يخلقوا هم لأنفسهم منها شيئاً , وما هم بقادرين على خلق شيء أصلاً . ولكن مشيئة الله في عمارة هذه الأرض اقتضت أن تكون للناس حاجات لا ينالونها إلا بالعمل والكد ; وفلاحة هذه الأرض ; وصناعة خاماتها ; ونقل خيراتها من مكان إلى مكان , وتداول هذه الخيرات وما يقابلها من سلعة أو نقد أو قيم تختلف باختلاف الزمان والمكان . كما اقتضت أن يتفاوت الناس في المواهب والاستعدادات وفق حاجات الخلافة الكاملة في هذه الأرض . وهذه الخلافة لا تحتاج إلى المواهب والاستعدادات المتعلقة بجمع المال والأرزاق وحدها , إنما تحتاج إلى مواهب واستعدادات أخرى قد تحقق ضرورات أساسية لخلافة الجنس الإنساني في الأرض , بينما يفوتها جمع المال والأرزاق ويعوزها !

وفي خلال هذا الخضم الواسع لحاجات الخلافة ومطالبها , والمواهب والاستعدادات اللازمة لها , وما يترتب على هذه وتلك من تداول للمنافع والأرزاق , وتصارع وتضارب في الأنصبة والحظوظ . . في خلال هذا الخضم الواسع المترابط الحلقات لا في جيل واحد , بل في أجيال متعددة قريبة وبعيدة , ماضية وحاضرة ومستقبلية . . في خلال هذا الخضم تتفاوت الأرزاق في أيدي العباد . . ولكي لا ينتهي هذا التفاوت إلى إفساد الحياة والمجتمع , بينما هو ناشئ أصلاً من حركة الحياة لتحقيق خلافة الإنسان في الأرض , يعالج الإسلام الحالات الفردية الضرورية بخروج أصحاب الثراء عن قدر من مالهم يعود على الفقراء ويكفل طعامهم وضرورياتهم . وبهذا القدر تصلح نفوس كثيرة من الفقراء والأغنياء سواء . فقد جعله الإسلام زكاة . وجعل في الزكاة معنى الطهارة . وجعلها كذلك عبادة . وألف بها بين الفقراء والأغنياء في مجتمعه الفاضل الذي ينشئه على غير مثال .

فقولة أولئك المحجوبين عن إدراك حكمة الله في الحياة: (أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ؟) . . وتطاولهم على الداعين إلى الإنفاق بقولهم: (إن أنتم إلا في ضلال مبين) . . إن هو إلا الضلال المبين الحقيقي عن إدراك طبيعة سنن الله , وإدراك حركة الحياة , وضخامة هذه الحركة , وعظمة الغاية التي تتنوع من أجلها المواهب والاستعدادات , وتتوزع بسببها الأموال والأرزاق .

والإسلام يضع النظام الذي يضمن الفرص العادلة لكل فرد , ثم يدع النشاط الإنساني المتنوع اللازم للخلافة في الأرض يجري مجراه النظيف . ثم يعالج الآثار السيئة بوسائله الواقية .

وأخيراً يجيء شكهم في الوعد , واستهزاؤهم بالوعد:

(ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟) . .

ووعد الله لا يستقدم لاستعجال البشر ; ولا يستأخر لرجائهم في تأخيره . فكل شيء عند الله بمقدار . وكل أمر مرهون بوقته المرسوم . إنما تقع الأمور في مواعيدها وفق حكمة الله الأزلية التي تضع كل شيء في مكانه , وكل حادث في إبانه , وتمضي في تصريف هذا الكون وما فيه ومن فيه وفق النظام المقدر المرسوم في إمام مبين .

أما الرد على هذا السؤال المنكر فيجيء في مشهد من مشاهد القيامة يرون فيه كيف يكون , لا متى يكون . .

الدرس السادس: 49 65 مشهذان سريعان للضعف والبعث والنعيم والعذاب

(ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخضمون . فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون . ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا: يا ويلنا ! من بعثنا من مرقدنا ؟ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون) . .

يسأل المكذبون: (متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) . . فيكون الجواب مشهداً خاطفاً سريعاً . . صيحة تصعق كل حي , وتنتهي بها الحياة والأحياء:

قَالُوا يَا وَبَلْنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (52) إِنْ كَانَتْ
إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (53) قَالَتُمْ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا
تُجْرَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (54) إِنْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمِ فِي شُغْلٍ فَاكِهِونَ (55) هُمْ
وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِيُونَ (56) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ (57)
سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ (58) وَامْتَأْتُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (59) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا
بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (60) وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ
(61) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (62) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ
تُوعَدُونَ (63) أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (64)

(ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخضمون . فلا يستطيعون توصية ولا إلى
أهلهم يرجعون) . .

فهي تأخذهم بغتة وهم في جدالهم وخصامهم في معترك الحياة , لا يتوقعونها ولا
يحسبون لها حساباً . فإذا هم منتهون . كل على حاله التي هو عليها . لا يملك أن يوصي
بمن بعده . ولا يملك أن يرجع إلى أهله فيقول لهم كلمة . . وأين هم ؟ إنهم مثله في
أماكنهم منتهون !

ثم ينفخ في الصور فإذا هم ينتفضون من القبور . ويمضون سراعاً , وهم في دهش
وذعر يتساءلون: (من بعثنا من مرقدنا ؟). ثم تزول عنهم الدهشة قليلاً , فيدركون
ويعرفون: (هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون)!

ثم إذا الصيحة الأخيرة . صيحة واحدة . فإذا هذا الشئيت الحائر المذهول المسارع في
خطاه المدهوش . يثوب: (فإذا هم جميع لدينا محضرون) . . وتنتظم الصفوف , ويتهاى
الاستعراض في مثل لمح البصر ورجع الصدى . وإذا القرار العلوي في طبيعة الموقف ,
وطبيعة الحساب والجزاء يعلن على الجميع:

(فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون) . .

وفي هذه السرعة الخاطفة التي تتم بها تلك المشاهد الثلاثة تناسق في الرد على أولئك
الشاكين المرتابين في يوم الوعد المبين !

ثم يطوي السياق موقف الحساب مع المؤمنين , ويعجل بعرض ما صاروا إليه من نعيم:

إِنْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمِ فِي شُغْلٍ فَاكِهِونَ . هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِيُونَ
. لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ . سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ . .

إنهم مشغولون بما هم فيه من النعيم , ملتذون متفكهون . وإنهم لفي ظلال مستطابة
يستروحون نسيمها . . وعلى أرائك متكئين في راحة ونعيم هم وأزواجهم . لهم فيها
فاكهة ولهم كل ما يشاءون ; وهم ملاك محقق لهم فيها كل ما يدعون . ولهم فوق
اللذائذ التأهيل والتكريم: (سلام) . . يتلقونه من ربهم الكريم: (قولا من رب رحيم) . .

فأما الآخرون فلا يطوي السياق موقف حسابهم , بل يعرضه ويبرز فيه التبكيت والتنكيل:

وامتازوا اليوم أيها المجرمون . ألم أعهد إليكم - يا بني آدم - ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم
عدو مبين . وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم . ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً . أفلم تكونوا
تعقلون ؟ هذه جهنم التي كنتم توعدون . اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون . .

إنهم يتلقون التحقير والترذيل: (وامتازوا اليوم أيها المجرمون). . انزلوا هكذا بعيداً عن المؤمنين !

ألم أعهد إليكم - يا بني آدم - ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ؟ . .

ونداؤهم هنا (يا بني آدم). . فيه من التبكيت ما فيه . وقد أخرج الشيطان أباهم من الجنة ثم هم يعبدونه , وهو لهم عدو مبين .

(وأن اعبدوني). . (هذا صراط مستقيم). .

واصل إليّ مؤد إلى رضي .

فلم تحذروا عدوكم الذي أضل منكم أجيالاً كثيرة . . (أفلم تكونوا تعقلون?).

وفي نهاية هذا الموقف العصيب المهين يعلن الجزاء الأليم , في تهكم وتأنيب:

(هذه جهنم التي كنتم توعدون . اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون)!

الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (65) وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (66) وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَا هُمْ عَلَىٰ مَكَاتَتِهِمْ فَمَا اسْتَبَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يُرْجَعُونَ (67) وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (68)

ولا يقف المشهد عند هذا الموقف المؤذي ويطويه . بل يستطرد العرض فإذا مشهد جديد عجيب:

(اليوم نختم على أفواههم , وتكلمنا أيديهم , وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون). .

وهكذا يخذل بعضهم بعضاً , وتشهد عليهم جوارحهم , وتتفكك شخصيتهم مزقاً وآحاداً يكذب بعضها بعضاً . وتعود كل جارحة إلى ربها مفردة , ويثوب كل عضو إلى بارئه مستسلماً .

إنه مشهد عجيب رهيب تذهل من تصوره القلوب !

الدرس السابع 66 - 67 مشاهد ساخرة للكفار يوم القيامة

كذلك انتهى المشهد وألسنتهم معقودة وأيديهم تتكلم , وأرجلهم تشهد , على غير ما كانوا يعهدون من أمرهم وعلى غير ما كانوا ينتظرون . ولو شاء الله لفعل بهم غير ذلك , ولأجرى عليهم من البلاء ما يريد . . ويعرض هنا نوعين من هذا البلاء لو شاء الله لأخذ بهما من يشاء:

(ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط , فأنى يبصرون ; ولو نشاء لمسخناهم على مكاتتهم فما استباعوا مضياً ولا يرجعون). .

وهما مشهدان فيهما من البلاء قدر ما فيهما من السخرية والاستهزاء . السخرية بالمكذبين والاستهزاء بالمستهزئين , الذين كانوا يقولون: (متى هذا الوعد إن كنتم صادقين?) . .

فهم في المشهد الأول عريان مطموسون . ثم هم مع هذا العمى يستبقون الصراط ويتزاحمون على العبور , ويتخبطون تخبط العميان حين يتسابقون ! ويتساقطون تساقط العميان حين يسارعون متنافسين ! (فأنى يبصرون)

وهم في المشهد الثاني قد جمدوا فجأة في مكانهم , واستحالوا تماثيل لا تمضي ولا تعود ; بعد أن كانوا منذ لحظة عمياناً يستبقون ويضطربون !

وإنهم ليبدون في المشهدين كالدُمى واللعب , في حال تثير السخرية والهزاء . وقد كانوا من قبل يستخفون بالوعيد ويستهزئون !

الدرس الثامن: 68 شيخوخة منكسة للكفار

ذلك كله حين يحين الموعد الذي يستعجلون . . فأما لو تركوا في الأرض , وعمروا طويلاً وأمهلهم الوعد المرسوم بعض حين ; فإنهم صائرون إلى شر يحمدون معه التعجيل . . إنهم صائرون إلى شيخوخة وهم , ثم إلى خرف ونكسة في الشعور والتفكير:

(ومن نعمة ننكسه في الخلق . أفلا يعقلون) . .

والشيخوخة نكسة إلى الطفولة . بغير ملاحظة الطفولة وبراءتها المحبوبة ! وما يزال الشيخ يتراجع , وينسى ما علم , وتضعف أعصابه , ويضعف فكره , ويضعف احتمالته , حتى يرتد طفلاً . ولكن الطفل محبوب اللثغة , تبسم له القلوب والوجوه عند كل حماقة . والشيخ مجتوى لا تقال له عثرة إلا من عطف ورحمة , وهو مثار السخرية كلما بدت عليه مخايل الطفولة وهو عجوز . وكلما استحمق وقد قوست ظهره السنون !

فهذه العاقبة كتلك تنتظر المكذبين , الذين لا يكرمهم الله بالإيمان الراشد الكريم . .

وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (69) لِيُنذِرَ مَنِ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (70) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا نَعَمًا فَهُمْ لَهَا بِالِكُونَ (71) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (72) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (73) وَأَتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (74) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ (75) فَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (76)

الوحدة الثالثة: 69 - 83 الموضوع: مظاهر قدرة الله في خلق المخلوقات وتدبير أمورها
الدرس الأول: 69 - 70 نفي الشعر عن القرآن وإثبات الوحي

في هذا القطاع الأخير من السورة تستعرض كل القضايا التي تعالجها السورة . . قضية الوحي وطبيعته وقضية الألوهية والوحدانية . وقضية البعث والنشور . . تستعرض في مقاطع مفصلة . مصحوبة بمؤثرات قوية في إيقاعات عميقة . كلها تتجه إلى إبراز يد القدرة وهي تعمل كل شيء في هذا الكون وتمسك بمقاليده الأمور كلها . ويتمثل هذا المعنى مركزاً في النهاية في الآية التي تختم السورة: (فسبحان الذي بيده ملكوت كل

بالقياس إليهم هي تسجيل الاستحقاق للعذاب , فإن الله لا يعذب أحداً حتى تبلغه الرسالة ثم يكفر عن بينة ويهلك بلا حجة ولا معذرة !

وهكذا يعلم الناس أنهم إزاء هذا القرآن فريقان: فريق يستجيب فهو حي . وفريق لا يستجيب فهو ميت ويعلم هذا الفريق أن قد حق عليه القول , وحق عليه العذاب !

الدرس الثاني: 71 - 76 مظاهر القدرة الربانية في الأنعام ودلالاتها على الوحدانية

والمقطع الثاني في هذا القطاع يعرض قضية الألوهية والوحدانية , في إطار من مشاهدات القوم , ومن نعم الباري عليهم , وهم لا يشكرون:

(أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون ؟ وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ؟ واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون . لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون . فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون). .

أو لم يروا ؟ فآية الله هنا مشهودة منظورة بين أيديهم , ليست غائبة ولا بعيدة , ولا غامضة تحتاج إلى تدبر أو تفكير . . إنها هذه الأنعام التي خلقها الله لهم وملكهم إياها . وذلكها لهم يركبونها ويأكلون منها ويشربون ألبانها , وينتفعون بها منافع شتى . . وكل ذلك من قدرة الله وتدبيره ; ومن إيداعه ما أودع من الخصائص في الناس وفي الأنعام , فجعلهم قادرين على تذليلها واستخدامها والانتفاع بها . وجعلها مذلة نافعة ملية لشتى حاجات الإنسان . وما يملك الناس أن يصنعوا من ذلك كله شيئاً . وما يملكون أن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له . وما يملكون أن يذلوا ذبابة لم يركب الله في خصائصها أن تكون ذلولاً لهم ! . . (أفلا يشكرون ؟) . .

وحين ينظر الإنسان إلى الأمر بهذه العين وفي هذا الضوء الذي يشيعه القرآن الكريم . فإنه يحس لتوه أنه مغمور بفيض من نعم الله . فيض يتمثل في كل شيء حوله . وتصبح كل مرة يركب فيها دابة , أو يأكل قطعة من لحم , أو يشرب جرعة من لبن , أو يتناول قطعة من سمن أو جبن . أو يلبس ثوباً من شعر أو صوف أو وبر . . إلى آخره إلى آخره . . لمسمة وجدانية تشعر قلبه بوجود الخالق ورحمته ونعمته . ويتردد هذا في كل ما تمس يده من أشياء حوله , وكل ما يستخدمه من حي أو جامد في هذا الكون الكبير . وتعود حياته كلها تسيحاً لله وحمداً وعبادة آناء الليل وأطراف النهار . .

ولكن الناس لا يشكرون . وفيهم من اتخذ مع هذا كله آلهة من دون الله:(واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون . لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون):وفي الماضي كانت الآلهة أصناماً وأوثاناً , أو شجراً أو نجوماً , أو ملائكة أو جنأ . . والوثنية ما تزال حتى اليوم في بعض بقاع الأرض . ولكن الذين لا يعبدون هذه الآلهة لم يخلصوا للتوحيد . وقد يتمثل شركهم اليوم في الإيمان بقوى زائفة غير قوة الله ; وفي اعتمادهم على أسناد أخرى غير الله . والشرك ألوان , تختلف باختلاف الزمان والمكان .

ولقد كانوا يتخذون تلك الآلهة يبتغون أن ينالوا بها النصر . بينما كانوا هم الذين يقومون بحماية تلك الآلهة أن يعتدي عليها معتد أو يصيبها بسوء , فكانوا هم جنودها وحماتها المعدين لنصرتها: (وهم لهم جند محضرون). . وكان هذا غاية في سخف التصور والتفكير . غير أن غالبية الناس اليوم لم ترتق عن هذا السخف إلا من حيث الشكل . فالذين يؤلهون الطغاة والجبارين اليوم , لا يعبدون كثيراً عن عباد تلك الأصنام والأوثان .

فهم جند محضرون للطغاة . وهم الذين يدفعون عنهم ويحمون طغيانهم . ثم هم في الوقت ذاته يخرون للطغيان راكعين !

إن الوثنية هي الوثنية في شتى صورها . وحيثما اضطربت عقيدة التوحيد الخالص أي اضطراب جاءت الوثنية , وكان الشرك , وكانت الجاهلية ! ولا عصمة للبشرية إلا بالتوحيد الخالص الذي يفرد الله وحده بالألوهية . ويفرده وحده بالعبادة . ويفرده وحده بالتوجه والاعتماد . ويفرده وحده بالطاعة والتعظيم .

(فلا يحزنك قولهم . إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون).

الخطاب للرسول [ص] وهو يواجه أولئك الذين اتخذوا من دون الله آلهة . والذين لا يشكرون ولا يذكرون . ليطمئن بالأمن ناحيتهم . فهم مكشوفون لعلم الله . وكل ما يدبرونه وما يملكونه تحت عينه . فلا على الرسول منهم . وأمرهم مكشوف للقدرة القادرة . والله من ورائهم محيط . .

ولقد هان أمرهم بهذا . وما عاد لهم من خطر يحسه مؤمن يعتمد على الله . وهو يعلم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون . وأنهم في قبضته وتحت عينه وهم لا يشعرون !

الدرس الثالث: 77 - 82 أدلة على البعث من حياة الإنسان والنبات

والمقطع الثالث في هذا القطاع الأخير يتناول قضية البعث والنشور:

(أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال: من يحيي . قال: من يحيي

أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانَ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (77) وَصَرَّيْنَا لِلنَّاسِ مَثَلًا وَنَسِيَّ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ (80) الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ: يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ . أَو لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ؟ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ . فَيَكُونُ) . .

وببدأ هذا المقطع بمواجهة الإنسان بواقعه هو ذاته في خاصة نفسه . وهذا الواقع يصور نشأته وصيرورته مما يراه واقعا في حياته , ويشهده بعينه وحسه مكرراً معاداً . ثم لا ينتبه إلى دلالاته , ولا يتخذ منه مصداقاً لوعد الله ببعثه ونشوره بعد موته ودثوره . .

(أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين) . .

فما النطفة التي لا يشك الإنسان في أنها أصله القريب ؟ إنها نقطة من ماء مهين , لا قوام ولا قيمة ! نقطة من ماء تحوي ألوف الخلايا . . خلية واحدة من هذه الألوف هي التي تصير جنينا . ثم تصير هذا الإنسان الذي يجادل ربه ويخاصمه ويطلب منه البرهان والدليل !

والقدرة الخالقة هي التي تجعل من هذه النطفة ذلك الخصيم الممين . وما أبعد النقلة بين المنشأ والمصير ! أفهذه القدرة يستعظم الإنسان عليها أن تعيده وتنتشره بعد البلى والدثور ?

(وضرب لنا مثلاً - ونسي خلقه - قال: من يحيي العظام وهي رميم . قل: يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم). .

يا للبساطة ! ويا لمنطق الفطرة ! ومنطق الواقع القريب المنظور !

وهل تزيد النطفة حيوية أو قدرة أو قيمة على العظم الرميم المفتوت ? أو ليس من تلك النطفة كان الإنسان ? أو ليست هذه هي النشأة الأولى ? أو ليس الذي حول تلك النطفة إنساناً , وجعله خصيماً مبيئاً بقادر على أن يحول العظم الرميم مخلوقاً حياً جديداً ?

إن الأمر أيسر وأظهر من أن يدور حوله سؤال . فما بال الجدل الطويل ?!

(قل: يحييها الذي أنشأها أول مرة . وهو بكل خلق عليم). .

ثم يزيدهم إيضاحاً لطبيعة القدرة الخالقة , وصنعها فيما بين أيديهم وتحت أعينهم مما يملكون:

(الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون). .

والمشاهدة الأولية الساذجة تقنع بصدق هذه العجبية ! العجبية التي يمرون عليها غافلين . عجبية أن هذا الشجر الأخضر الريان بالماء , يحتك بعضه ببعض فيولد ناراً ; ثم يصير هو وقود النار . بعد اللدونة والاختصار . . والمعرفة العلمية العميقة لطبيعة الحرارة التي يخترنها الشجر الأخضر من الطاقة الشمسية التي يمتصها , ويحتفظ بها وهو ريان بالماء ناضر بالخضرة ; والتي تولد النار عند الاحتكاك , كما تولد النار عند الاحتراق . . هذه المعرفة العلمية تزيد العجبية بروزاً في الحس ووضوحاً . والخالق هو الذي أودع الشجر خصائصه هذه . والذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . غير أننا لا نرى الأشياء بهذه العين المفتوحة ولا نتدبرها بذلك الحس الواعي .

فلا تكشف لنا عن أسرارها المعجبة . ولا تدلنا على مبدع الوجود . ولو فتحنا لها قلوبنا لباحت لنا بأسرارها , ولعشنا معها في عبادة دائمة وتسبيح !

ثم يستطرد في عرض دلائل القدرة وتبسيط قضية الخلق والإعادة للبشر أجمعين:

(أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ? بلى وهو الخلاق العليم). .

أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِنْهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (81) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82) فَسُبْحَانَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتَهُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (83)

والسماوات والأرض خلق عجيب هائل دقيق . هذه الأرض التي نعيش عليها ويشاركنا ملايين الأجناس والأنواع , ثم لا نبلغ نحن شيئاً من حجمها , ولا شيئاً من حقيقتها , ولا نعلم عنها حتى اليوم إلا القليل . هذه الأرض كلها تابع صغير من توابع الشمس التي تعيش أرضنا الصغيرة على ضوئها وحرارتها . وهذه الشمس واحدة من مائة مليون في المجرة الواحدة التي تتبعها شمسنا , والتي تؤلف دنيانا القريبة ! وفي الكون مجرات أخرى كثيرة . أو دنيئات كدنيانا القريبة . عد الفلكيون حتى اليوم منها مائة مليون مجرة بمناظيرهم المحدودة . وهم في انتظار المزيد كلما أمكن تكبير المناظير والمراسد . وبين مجرتنا أو دنيانا والمجرة التالية لها نحو خمسين وسبع مائة ألف سنة ضوئية [السنة الضوئية تقدر بستة وعشرين مليون مليون من الأميال !] . وهناك كتل ضخمة من السدم التي يظن أنه من نثارها كانت تلك الشموس . وهذا هو الجزء الذي يدخل في دائرة معارفنا الصغيرة المحدودة !

تلك الشموس التي لا يحصيها العد . لكل منها فلك تجري فيه . ولمعظمها توابع ذات مدارات حولها كمدار الأرض حول الشمس . وكلها تجري وتدور في دقة وفي دأب . لا تتوقف لحظة ولا تضطرب . وإلا تحطم الكون المنظور واصطدمت هذه الكتل الهائلة السابحة في الفضاء الواسع . .

هذا الفضاء الذي تسبح فيه تلك الملايين التي لا يحصيها العد , كأنها ذرات صغيرة . لا نحاول تصويره ولا تصوره . . فذلك شيء يدير الرؤوس !

(أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟) . .

وأين الناس من ذلك الخلق الهائل العجيب ؟

(بلى ! وهو الخلاق العليم) . .

ولكن الله - سبحانه - يخلق هذا وذلك ويخلق غيرهما بلا كلفة ولا جهد . ولا يختلف بالقياس إليه خلق الكبير وخلق الصغير:

(إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن . فيكون) . .

يكون هذا الشيء سماء أو أرضا . ويكون بعوضة أو نملة . هذا وذلك سواء أمام الكلمة . . كن . . فيكون !

ليس هناك صعب ولا سهل . وليس هنالك قريب ولا بعيد . فتوجه الإرادة لخلق الشيء كاف وحده لوجوده كائناً ما يكون . إنما يقرب الله للبشر الأمور ليدركوها بمقياسهم البشري المحدود .

الدرس الرابع: 83 تسبيح الله المالك للملك

وعند هذا المقطع يجيء الإيقاع الأخير في السورة . الإيقاع المصور لحقيقة العلاقة بين الوجود وخالق الوجود:

(فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء . وإليه ترجعون) . .

ولفظة ملكوت بصياغتها هذه تضخم وتعظم حقيقة هذه العلاقة . علاقة الملكية المطلقة لكل شيء في الوجود . والسيطرة القابضة على كل شيء من هذا المملوك .

ثم إن إليه وحده المرجع والمصير . .

إنه الإيقاع الختامي المناسب لهذه الجولة الهائلة , وللسورة كلها , ولموضوعاتها المتعلقة بهذه الحقيقة الكبيرة , التي يندرج فيها كل تفصيل . .